الجزائر في رحلة المستشرق الفرنسي جي دي موباسان
"رحلة إلى الجزائر إلى بلاد الشمس"

Algeria in the Journey of the French Orientalist Guy de Maupassant "A Journey to Algeria To the Land of the Sun"

رانيا ختال*

جامعة 20 أوت 1955، سكيكدة-الجزائر r.khettal@univ-skikda.dz

تاريخ الإرسال:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2024-08-31	2025-01-29	2025-01-31

ملخّص: تهدف هذه الورقة البحثية إلى استجلاء دور أدب الرحلات الغربية وبعدها الاستشراقي في ربط أواصر الآداب والثقافات والمعارف، باعتبار هذه الأخيرة الجسر الرابط بين مختلف الأمم والشعوب ثقافيا واجتماعيا، ما جعلها أرضا خصبة للدراسات الاستشراقية، وعليه سلطنا الضوء على أهم المفاهيم اللغوية والاصطلاحية التي تؤسس لقاعدة البحث، ودور الرحلات الاستشراقية في نقل صورة الأنا للآخر، معتمدين في ذلك على المنهج الوصفي التحليلي باعتباره المنهج الأنسب للوصول إلى نتائج تعين على وضع أطر محددة لها.

كلمات مفتاحيّة: الرحلة؛ الاستشراق؛ الثقافة؛ الجزائر ؛ جي دي موباسان.

Abstract: This research paper seeks to elucidate the function of Western travel literature and its Orientalist aspects in connecting literature, cultures, and knowledge. Knowledge serves as a conduit between nations and peoples, both culturally and socially, thus providing a rich field for Orientalist studies. Consequently, this paper highlights key linguistic and terminological concepts foundational to the research. Additionally, it examines how Orientalist travels have influenced the representation of the self in relation to the other, employing a cultural approach as the most suitable method to derive conclusions necessitating well-defined frameworks.

Keywords: The journey; Orientalism; culture; Algeria; Guy de Maupassant.

* المؤلف المرسل

1- المقدمة: يعتبر الاستشراق أكبر ظاهرة فكرية أسست لأدوار خطيرة في الفكر والأدب العربيين قديما وحديثا، فقديما أخذ العلوم والآداب والفنون عن الحضارة العربية الإسلامية ونقلها إلى الغرب، حيث أسس لنهضته العارمة على دعائمها، وبلغ من التقدم والرقي ما بلغه الآن، وحديثا استقى الأفكار والنظريات، والآراء الغربية المؤسسة على ثقافة العرب والمسلمين فردها إليهم مؤثرا بذلك في نهضتهم المعاصرة أبلغ التأثير.

لقد تعددت الدراسات الاستشراقية وتنوعت حول الشرق عامة، والجزائر خاصة نظرا لموقعها الجغرافي، وباعتبارها عروس البحر الأبيض المتوسط، وثرواتها وتنوع عاداتها وتقاليدها، واختلاف ثقافتها من منطقة لأخرى، هذا ما جعلها قِبلة للرحالة والمستشرقين، فقامت بثورة إنسانية وحضارية لم يقم مثلها في التاريخ، وسارت هذه الثورة وانتشرت متجاوزة كل التوقعات، حتى أصبح وطنها نقطة اجتماع الحضارات، وبوتقة تفاعلها.

كما يعد القرن التاسع عشر بداية الاستشراق الفرنسي نحو الجزائر، وكان الاحتلال الفرنسي للجزائر فاتحة لمعرفة الشرق عن قرب من خلال معايشة الشعب الجزائري لسنوات طويلة، فأنتج المستشرقون دراسات شملت جميع المجالات الدينية، والإنسانية، والطبيعية، والأنثروبولوجية.

هذا ما أدّى بالأدباء الفرنسيين إلى رسم صورة عن الشعب الجزائري خاصة وأنهم احتلوا سكانها احتلالا خلال الفترة الاستعمارية، فلُوّنت صورة الجزائر في المرحلة الما بعد كولونيالية بألوان مختلفة يصعب حصرها نتيجة لتباين الرؤى، واختلاف ثقافتهم وأهدافهم، فمنهم من كان مفتونا بسحر الشرق، ومنهم من أراد تشويه صورته، والآخر نقل صورة حية ومباشرة عن الجزائر.

وتعتبر كتابات "موباسان" نصوصًا رحلية استشراقية بامتياز، تجلت فيها مختلف الصور عن الجزائر، باعتبارها من الشعوب المختلفة دينيا وعرقيا عن ثقافة ودين الرحالة، ومن هنا نتساءل: كيف صور موباسان الجزائر؟ وكيف كانت نظرته لها؟

وللإجابة على مختلف التساؤلات التي يطرحها هذا الموضوع اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي، باعتباره الأجدر للدراسة.

2- مفاهيم اصطلاحية: إن بداية هذه الدراسة هي الوقوف عند بعض المفاهيم والمصطلحات التي تؤسس لها، باعتبارها لبنة أساسية في فهم أبعادها وضبط دلالاتها، لأنّ التعاريف هي بوابة كل بحث، ولذلك أصبح من المعروف أن المفاهيم لا تتأسس اعتباطا.

1.2 الرحلة: تُعرَّف الرحلة بأنها: "مصطلح أدبي وجغرافي يقصد به غالبا ذلك المنتوج الفني الذي يروم التنظير لأدبيات السفر والمسير، أو ذلك الخطاب الذي يتبع نشاط الرحالة وهو يجوب البلاد ويقطع المسافات إما عبرة واستبصارا، أو حجا واعتمارا، وربما نزهة واستطلاعا، أو طلبا للمعارف والعلوم، أو سعيا لاكتساب التجارة والعروض"[1].

وهناك من يعرفها على أنها: "تعبير كتابي لتلك العلاقة التي تتشكل بين الذات المسافرة والعالم المحيط بها أثناء رحلتها"[2].

وعلى هذا الأساس التعريفي يظهر أنّ أدب الرحلة يدل على الحركة والسير والانتقال من مكان لآخر، وهي ضد الثبات والاستقرار، والسفر والتنقل بين مختلف البلدان والأمكنة لغرض معين، يقوم فيه الرحالة بتسجيل كل ما شاهده خلال رحلته.

2.2 الاستشراق: خلال هذا الصراع الوجودي المستمر بين العرب والغرب ولدت في أوربا فكرة فلسفة الاستشراق التي تسعى جاهدة إلى معرفة حضارة الشرق، ومن هنا، حاول المستشرقون التعرف على الشرق والتغلغل في آفاقه الفكرية بدراسة آدابه وثقافته، ولهم في ذلك مناهجهم وأهدافهم التي تبدو واضحة من خلال مؤلفاتهم وترجماتهم

وتحقيقاتهم فأثَّروا بطريقة أو بأخرى في النهضة العربية الإسلامية الحديثة عامة، والنهضة الفكرية والثقافية خاصة، وانطلاقا من هذه الحيثيات لابد من دراسة "الاستشراق" لمعرفة ماهيته.

يعتبر الاستشراق علما له كيانه ومنهجه، ومدارسه وفلسفته، ودراساته ومؤلفاته، وأغراضه وأتباعه، ومعاهده ومؤتمراته، فالمستشرق ابن بيئته، وهو لابد أن يتأثر بكل ما كتب عن الإسلام والمسلمين، وما قرأه في مجتمعه من صور باطلة وافتراءات مزيفة، وبالمقابل يصور لنا المستشرقون من خلال دراساتهم الجزائر دينيًّا وجغرافيًّا، ورؤيتهم لها.

يقول أحمد حسن الزياد: "يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق، وأممه، ولغاته وآدابه، وعلومه، وعاداته، ومعتقداته، وأساطيره، ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لصلتها بالعلم"[3].

و يذهب البعض إلى اعتبار الاستشراق وسيلة استعمارية لفرض السيطرة على الشرق وبسط نفوذه عليه، وبالتالي فهو وسيلة من وسائل الاستدمار الفرنسي للجزائر.

3- علاقة الرحلة بالاستشراق: الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، فهو عبارة عن تشكيل نظرة الغرب للشرق من خلال لعبه دورا بين الحقيقة والتضليل، باعتباره رسالة استعمارية غربية تجاه الشرق، فتم توظيفه خدمة للاستعمار الفرنسي للجزائر، فكانت الرحلات من بين أهم الوسائل المساعدة على تحقيق هذه الغاية بوصفها الانتقال من مكان لآخر، فاتخذ الرحالة المستشرقون الجزائر وجهة لهم "حيث اعتبر إدوارد سعيد أدب الرحلة أهم مؤسس نصي ومنتوج استشراقي، وهو أداة ووسيط نصي للاستشراق، وتعتبر الرحلة –إلى جانب القصة والخرافة والمستنسخات– من بين الوسائل التي رأى بها الغربيون الشرق"[4].

كما عبّر عن ذلك "زهير سوكاح" في معرض حديثه قائلا: "من هذا المنطلق يمكن اعتبار أدب الرحلة عن الشرق من أهم الوسائط النصية للاستشراق...نتعاطى إذا مع أدب الرحلة بوصفه شكلا من أشكال إدراك وتصوير الذات الغربية في مواجهتها للآخر الشرقي الغريب عنها"[5].

بالإضافة إلى أنه يصعب دراسة شعب من الشعوب دون الارتحال إليه، ومخالطة مواطنيه والتعرف على حياتهم عن قرب، وخير دليل على ذلك قول "رضوان ضاوي": "وقد يصعب تصور وفهم الشرق بدون دراسة كتابات الرحالة، ويكون بذلك هذا النوع من توثيق السفر والرحلات وسيلة لتوضيح مدى إدراك الأوروبي للشرق لا كوجهة سياحية فقط، ولكن أيضا كصورة مضادة للهوية الأوربية الخاصة المتمثلة في المركزية الأوروبية التي تعيد اكتشاف آليات استعمار دول تلك البقاع البعيدة"[6].

وبهذا، فالاستشراق من أهم الوسائل المساعدة في التعرف على الجزائر، والاطلاع على ثقافة شعبها وتاريخها، وحضارتها التي احتلت في عيون الآخر الغربي مكانة أغرت المستشرقين لزيارتها، والتأليف عنها وإبراز مختلف الصور حولها.

كما يهتم المستشرقون برصد صورة الجزائر وتمثيلها في رحلاتهم، انطلاقا من خلفيات سابقة في مخيلتهم، ولكن من خلال الترحال إليها ساهموا في إعطاء بعض الصور الإيجابية بعيدا عن النمطية السلبية الراسخة في ذهنية الغربي.

يعتبر "موباسان" أحد الرحالة المستشرقين الذين ساهموا في إعطاء نظرة إيجابية عن الإنسان الجزائري، وطبيعتها الساحرة، فاتسمت نظرته بالإيجابية في كثير من المحطات منطلقا من ذاتيته مخالفا نظرة سابقيه، وهذا ما دفعه للتعبير بكل موضوعية، وهو ما ظهر جليًا وواضحًا في نصه، من خلال تقديره لسماحة الإسلام وتقديس

الجزائريين لشهر رمضان المبارك، وبهذا ساهم بقدر كبير في إيضاح بعض الصور المغلوطة، وهذا ما سنوضحه في هذه الدراسة.

4- صورة الجزائر في عيون المستشرق جي دي موباسان: تكتسب هذه الدراسة أهميتها من كونها تتناول صورة المشرق العربي في كتابات الرحالة المستشرقين الفرنسيين خلال فترة ما بعد الكولونيالية وعلى وجه التحديد "جي دي موباسان" متخذا من الجزائر أنموذجا، وهي رحلة ترصد تاريخ الجزائر، ونقل الصورة التي رسمها في ذهنه بطريقة موضوعية أحيانا، وبطريقة راسخة في أذهان من سبقوه من المستشرقين عن نظرتهم السلبية للجزائر، إلا أننا سنركز على النظرة الإيجابية في هذه الدراسة، لما لهذا البلد من دور محوري ومركزي في نصوص المستشرق الرحالة خلال زياراته.

تاريخ الجزائر وبطولاتها وطبيعتها دفعت بالمستشرقين إلى الرغبة في زيارتها واكتشاف سحرها وجمال طبيعتها الخلابة، وشمسها ورمال صحرائها، والتغني بنسائها وآثارها، والافتخار بقوة أبطالها، وهذا ما وجدناه في رحلة موباسان.

1.4 صورة الأمكنة/الطبيعة الجزائرية: تقف هذه الدراسة على رصد صورة الجزائر الطبيعية وتصوير مختلف الأمكنة في ضوء يوميات الرحالة موباسان الذي شكلت الجزائر بالنسبة له محطة سحرية في سياق رحلته، فلم يفوت عليه فرصة التنقل بين مختلف المناطق الجزائرية، وزيارة معالمها، والتعرف على مختلف عاداتها وتقاليدها، حيث يقول في معرض حديثه: "تجاوزت الجزائر العاصمة أفق انتظاري، كم هي جميلة، مدينة الثلج تحت الضوء الباهر"، وهذا ما جاء في النص الأصلي:

"Alger a passé mes attentes, Qu' elle est jolie, La ville de neige sous l'éblouissante lumière".

يعتبر المكان أهم العناصر التي يقوم عليها النص الرحلي، باعتباره الفضاء الذي تجري فيه الأحداث والمشاهد التي يصورها الرحالة، فيتخذ بذلك الدور الرئيسي

في الرحلة، فلا رحلة بدون مكان، ونجد موباسان يبدي انطباعه الإيجابي بالمدن الجزائرية وسحرها الخلاب، يصف قسنطينة، قائلا: "ها هي قسنطينة، المدينة الفريدة، الغريبة، كما لو أنها محروسة بثعبان يلتف حولها، سفوحها إنه الرومل، الرومل العجيب، نهر شعر نحسبه من أحلام دانتي، هذا النهر الغيور المثير، يلفها بهاوية مرعبة ملتوية ذات صخور لامعة غريبة، وأسوار مستقيمة مسننة"[7].

وهنا نلاحظ مدى افتتان موباسان بشوارع قسنطينة ومناظرها الطبيعية، وصخورها وجسورها المعلقة، إنها مدينة الهواء والوديان، والرياح، والقناطر الرائعة، فنجد الصورة المعبر عنها هنا من قبله تنم عن موضوعية ونزاهة، فكانت قسنطينة من بين الأمكنة التي سحرته.

وأكّد على هذا الإعجاب في وصفه لقصر الباي، فنجده أُسِرَ بجماله الساحر واعتباره من النماذج الهندسية المعمارية العربية الفاخرة، مُرجعا سبب ذلك إلى اهتمام الناس به وبتلك الحدائق المميزة ذات الذوق العربي الجميل، يقول: "أحد أكمل نماذج الهندسة المعمارية العربية، كما يقال كل المسافرين احتفلوا به، قارنوه ببيوت ألف ليلة وليلة، ما كان للقصر أن يكون جديرا بالاهتمام لو لم تعطه الحدائق الداخلية تلك الميزة الشرقية الجميلة"[8].

وبهذا نجد الرحالة شديد الافتتان بطبيعة قسنطينة الخلابة وبقصورها، فعبّر عن ذلك بكل شفافية وصراحة، متجاوزا الصورة النمطية في ذلك، فانتقل إلى مدينة عنابة هي الأخرى مفصحا عن شدة جمالها والذي ذكره في رحلته مشبها إياها بمدينته الفرنسية ووطنه الأم، حيث يقول: "مدينة بيضاء جميلة تذكرنا بمثيلاتها على سواحل البحر المتوسط في فرنسا"[9].

ويضيف استشهاد العرب بجمالها وفخامتها فوصفها بأسلوب بديع يترجم انبهاره الشديد بها بقوله: "يقول العرب إنّ المدينة تعطي إحساسا بأنها رداء ممتد، يسمونها

مدينة الهواء، مدينة الواد، مدينة الرياح، وهي تسيطر على وديان رائعة، غنية بآثار رومانية دارسة بصفوف قناطر هائلة، كما أنها مليئة ببنايات رائعة، وتشرف عليها مرتفعات المنصورة وسيدي مسيد"[10]، وهذا ما يدل على جمال وسحر مدينة قسنطينة التاريخية بالنسبة للرحالة.

كانت هذه أبرز الصور وغيرها كثير في وصف المدن التي كان لها وقع جيد في نفسية الرحالة، فتحدث عن طبيعة الجزائر وسواحلها، وخضرتها وشلالاتها، وصخورها وقصورها وشوارعها.

يقول أيضا معبرا عن رغبته في زيارة الجزائر وانجذابه نحوها وبصحرائها: "كل منا يحلم ببلده المفضل، واحد بالسويد والآخر بالهند، أما أنا فكم كنت مشدودا برغبة ملحة إلى إفريقيا وبي حنين ملح إلى الصحراء المجهولة كما هو الحال عند الحدس الذي يُساورنا بقرب ولوجنا تجربة حب...كنت أتطلع لرؤية الشمس والرمال في عزّ الصيف"[11].

ثم يعرج على وصف بجاية والتغني بطبيعتها الساحرة، يقول: "ها نحن في المنطقة الأغنى والأكثر عمرانا في الجزائر، بلاد القبائل، وهي جبلية مغطاة بالغابات والحقول...عند خروجنا من أومال وهبوطنا في اتجاه وادي الساحل الكبير هناك ينتصب جبل ضخم "جرجرة" لون قممه العليا رمادية كأنها مغطاة بالرماد"[12]. فالرحالة هنا يتحدث عن وصف منطقة بجاية، وطبيعتها الخلابة

2.4 التغني بنساء الجزائر: بالإضافة إلى وصفه لمدينة وهران بشكل دقيق راح يتغنى بنسائها، يقول: "وهران مدينة أوروبية بالفعل، تجارية وإسبانية أكثر منها فرنسية يصادف المرء في الأزقة فتيات جميلات بعيون سوداء وبشرة عاجية، وأسنان ناصعة البياض"[13].

يشير الرحالة من خلال هذا القول إلى التنوع الثقافي والتعاقب الحضاري، والاندماج العرقي الذي تعيشه وهران، ما جعل منها مدينة جزائرية الهوية بملامح أوروبية، وتأثيرات فرنسية.

كما افتتن بجمال نساء قسنطينة فراح يتغزل بجمالهن قائلا: "ينادينا بعيونهن مثل الكبيرات، إنهن لطيفات، مثيرات مثل الوحوش الفاتنة، يمكن القول إنها مدرسة داخلية للخليلات ذوات العشر سنوات وبذرة الحب المتفتحة...لكنّ بهجة قسنطينة تكمن في هذا الشعب اللطيف من الفتيات الصغيرات المبهرجات كأنهن ذاهبات إلى حفل"[14].

يتحدث موباسان عن نضج ووعي الفتيات في قسنطينة رغم صغر سنهن، وهنا مزيج بين براءة الطفولة والجاذبية المبكرة، فوصفهن بالوحوش الفاتنة لشدة جمالهن، وهذا انعكاس نمط الحياة اليومية عليهن.

3.4 صورة الرجل الجزائري: بالإضافة إلى ذلك دوَّن موباسان في يومياته كل ما رآه من ملاحظات ومشاهدات، فكان بعضها مكررا ومألوفا، وقد أسهمت مشاهداته في تكوين وتشكيل صورة الجزائري العربي في مخيلة المستشرق، ويتجلى ذلك في قوله: "بدا بوعمامة متعاطفا مع سجنائه، خاصة النساء اللاتي آواهن في خيمة خاصة ومحروسة، كانت إحداهن فتاة جميلة في الثامنة عشرة من عمرها، تزوجت في الطريق من زعيم الترافيس الذي هدّدها بالقتل إن هي قاومت، لكن الفقيه رفض مباركة هذا العقد"[15].

فالرحالة رسم هذه الصورة ونقلها لنا، بالإضافة إلى حديثه عن "الشيخ بوعمامة" الذي كان من بين الأسباب التي دفعته لزيارة الجزائر، والتعرف على هذه الشخصية العظيمة التي حيرت جيوش فرنسا لقوته وبسالته، فأورد لنا في رحلته خبر أسر بوعمامة لمجموعة من الإسبان العاملين بالجزائر في جمع الحلفاء، والذي قام بإعدام نصفهم محافظا على العنصر النسوي والأطفال.

تجدر الإشارة هنا إلى الصورة الإيجابية التي وصف بها الرحالة بوعمامة وأنه يتصف بأخلاق عالية، وهي صفة لا يمكن أن ننكرها على القادة الجزائريين، بالإضافة إلى قوتهم وبسالتهم التي أرعبت الجيش الفرنسي، ويعترف موباسان في رحلته بذلك، يقول: "...رغم بسالتهم، لكن لا يمكننا ملاحقتهم...يهجمون بتهور على وقع العدو العنيف لجيادهم الضامرة كعاصفة من البياض العائم والغبار، يفرغون خلال عدوهم بنادقهم الطويلة المرصعة"[16].

كان هذا المشهد تعبيرًا عن فشل الفرنسيين وتفوق المناضل الجزائري دفاعًا عن أرضه وعرضه وشرفه، ممثلا بشخصية دينية ووطنية وهي "الشيخ بوعمامة".

كما تأثر موباسان به وبشدة بأسه وقوته، فعمد إلى ذكره في العديد من المواقف النبيلة، فأعطى له بذلك صورة إيجابية تدل على تأثره به وبأخلاقه فراح يتحدث عن بطولاته الخارقة فأحسن في وصفه وتجسيد خوف فرنسا من بطشه: "سيكون في غاية الذكاء من يخبرنا حتى في يومنا هذا من هو بوعمامة، ذلك الشبح الذي أفزع جيشنا في إفريقيا ثم اختفى تماما حتى رحنا نشك في وجوده...هناك حادثة لافتة للنظر تستحق الإشارة إليها، في ذلك اليوم أشارت الرسائل الرسمية إلى وجود بوعمامة في مكانين يبعدان مئة وخمسين كيلومترا عن بعضهم في الوقت نفسه"[17].

هذا يدل على حنكة بوعمامة وخبرته في الميدان الحربي وتنفيذ العمليات دون ترك أثر له للحاق به، حيث أنه ينفذ مخططاته العسكرية القتالية ويختفي عن الأنظار بسرعة البرق كأنه شبح، بحيث يصعب ويستحيل على أعدائه الإمساك به، وهذا ما أرعب الجيوش الفرنسية في نظر موباسان، فهو يعتمد على أسلوب التضليل الذي أدى بهم إلى إطلاق اسم الشبح عليه، كما يعتبر الإمساك به بمثابة كنز نفيس وحلم لفرنسا،

لأنه يشكل نقطة خطر عليها لشدة ذكائه، بالإضافة إلى قوته الجسدية ومهاراته القتالية وبسالته، ومعرفته بالطرق والمسالك ما يسهل عليه سرعة تنقله واختفائه في لمح البصر.

كما صوّر قوة وشجاعة الشعب الجزائري في شخصية بوعمامة بكل موضوعية، ودليل ذلك صبر وعزيمة وبطولات الجزائر وانتصاراتها أمام القوات الاستعمارية حتى نالت استقلالها بالقوة، فلم يرض الشعب بالخنوع والذل والاستسلام مضحيا بالغالي والنفيس من أجل الحرية، فهي صورة صادقة عبّر عنها الرحالة موباسان بعيدا عن النمطية، متجاوزا الخلفيات التعسفية، فالثورة علّمت الجزائري البأس ورباطة الجأش حفاظا على هويته العربية الجزائرية من الانسلاخ، وحماية الدين الإسلامي من المسخ، واللغة العربية من الزوال والاندثار.

فالجزائر شعب يتميز بالذكاء، وقوة الصبر والتحمل والشجاعة، فهو شعب جسور يصعب استعباده وفرض الهيمنة عليه تحت أي ظرف كان، وهذا ما لفت انتباه الرحالة في مقاومة الجزائريين لمختلف الظواهر الطبيعية والظروف المعيشية القاسية، والبيئة الصعبة.

ومن ناحية أخرى أعطى صورة عن الميزابيين الذين وصفهم بالذكاء والنشاط والتجارة، ومعتقدهم الديني، يقول: "التجار الحقيقيون هم أهل ميزاب يهود الصحراء...أذكياء، نشيطون، وتجار في الصميم...هم من المسلمين الخوارج، جاء آباؤهم الذين طاردتهم جيوش فرنسا بشكل متواصل من الأماكن التي يقطنونها، لأنهم محسودون لذكائهم وحرفهم، ومهتمون أيضا بالإبداع"[18]، نجد بأن هذه الصورة عن الميزابيين نمطية وإيجابية لدى أغلب الرحالة والمستشرقين، فالرحالة ساقوا أمثلة من ذكائهم، وفطنتهم التجارية، ودينهم الإسلامي.

إضافة إلى الصورة الإيجابية للأمكنة الجزائرية؛ وهران، بجاية، قسنطينة، والإنسان الجزائري؛ بوعمامة، والتغني بجمال المرأة الجزائرية؛ الوهرانية والقسنطينية،

تطرق الرحالة إلى الجانب الديني الذي أكّد حرص الشعب على التمسك بدينه الإسلامي، وهذا ما أبهره فعبّر عن تحملهم مشقة الصيام رغم الحرارة والصلاة والوضوء وغيرها، وهذا ما سنراه في الجانب الديني.

4.4 صورة الجزائر الدينية: ينقل لنا موباسان صورة شهر رمضان وتقديس الجزائريين لهذا الشهر العظيم، بحيث يتساوى الجميع في هذا الركن الإيماني دون استثناء، وقد أحسن الرحالة وصف الجانب الديني حين قال عن شهر رمضان: "ليس هناك إعفاء لشهر الصوم هذا على أية حال، لا أحد يجرؤ على طلب ذلك حتى بنات الهوى في "أولاد نايل" يَصُمْنَ مثل النُّساك وربما أكثر...يصوم النساء والرجال والأولاد من سن الخامسة عشرة والبنات عند البلوغ، وكلهم يبقون دون طعام وشراب في هذا القيظ الشديد أمر فظيع ليس هناك إعفاء لشهر الصوم هذا"[19]؛ فالجميع يؤدي هذه العبادة دون استثناء، وهذا ما أدهش الرحالة بتمسك الجزائريين بدينهم رغم كل الظروف القاسية والأجواء الحارة والساخنة.

كما يقدم الرحالة وصفا دقيقا للأجواء الرمضانية في أوساط المجتمع الجزائري، يقول: "يستمر شهر رمضان ثلاثين يوما، لا يحق فيها لأي تابع من أتباع محمد – صلى الله عليه وآله وسلم– الأكل أو الشراب أو التدخين أثناء فترة الصيام الممتدة من الصباح قبل شروق الشمس إلى غروبها"[20]، وهذا حسب النص الأصلي:

"Pendant cette période, aucun serviteur de Mahomet ne doit boire".

فالجميع منضبط بعقيدة الإسلام التي تحكم سلوكه وتسير حياته، وهو شديد الإعجاب بتأثير الدين على السكان والأهالي، يقول: "رجال تطغى عليهم النظرية الدينية وتمحو كل شيء، تنظم السلوك، تخنق الضمائر، تبصر القلوب، تتحكم في الفكر،

تتفوق على كل المصالح والمشاغل، بالدين نجدهم طيبين، شجعانا، حنونين، ومخلصين، ولا يمثلون شيئا في حد ذاتهم لو لم يلهموا أو يؤمروا بإيمانهم"[21].

وفي مشهد آخر يعبر الرحالة عن خوف الفرنسيين من هذا الشهر الفضيل، باعتبار أن الجزائريين يربطون الجهاد بالصيام، ويتضح ذلك في قوله: "لقد بدأ شهر رمضان، كان من في المستعمرة قلقا إذ كان يخشى من ثورة عارمة بمجرد انتهاء شهر الصوم الإسلامي هذا"[22]،

ثم انتقل من الصيام إلى الصلاة معبرًا عن أدائه هذه الفريضة التي تعتبر عماد الدين، ويصف المسجد قائلا: "تمكنت من حضور المراسيم الدينية في المسجد الكبير في العاصمة مع بداية رمضان، بناء بسيط جدا، جدرانه مطلية بالجير، والأرضية مغطاة بالسجاد السميك، يدخل العرب إلى المسجد بحيوية، أرجلهم حافية، يصطفون في صفوف طويلة منتظمة...يصلون بهدوء وخشوع، يحس فيها المرء أنها عقيدة قوية...تنعش القلوب فيغمر المرء إحساسًا غامرًا بالاحترام"[23].

نلاحظ تأثر الرحالة بصلاة الجزائريين، وأنها السبب في احترامهم لبعضهم البعض، وقوة العزيمة لديهم، وصفاء القلوب اتجاه بعضهم، فالكاتب تأثر بالإسلام وبأركانه وفرائضه (الصلاة، الصوم، رمضان، وصف المساجد، الأضرحة، الوضوء).

وهذه صورة إيجابية عن الدين الإسلامي من قِبل الرحالة يصف فيها دور الدين في تهذيب النفوس وصقل الأخلاق، يقول: "الدين أكبر ملهم في تصرفاتهم وأرواحهم ومحاسنهم ومساوئهم، فبالدين نجدهم طيبين، شجعان، حنونين ومخلصين...لم تتجسد ديانة بهذا الشكل في الناس كما فعل الإسلام"[24].

فيعتبر الكاتب الإسلام مفخرة العرب، وشريعة المسلمين، والإسلام يساوي بين الجميع دون استثناء، ثم تطرق إلى طريقة الوضوء، يقول: "ويغسلون الوجوه والأيدي

والأرجل قبل أن يشرعوا في الصلاة"[25]، فالصلاة تشترط الطهارة، فالدين هو هوية الشعب الجزائري الإسلامية والدينية، فأعجب الرحالة بتمسكهم وحبهم لدينهم.

كما ذكر عادة الجزائريين في التبرك بأضرحة الأولياء الصالحين، إلا أنّ ذلك لا يبعدهم عن دينهم أو يؤثر على سلوكاتهم، تبقى عبادة الله وحده لا شريك له فوق كل شيء، يقول: "إذ إنهم حين يُبدون احترامهم للقبر فإنهم يتوجهون نحو مكة لعبادة الله، فلا ألوهية إلا لله كما يرددون في صلواتهم"[26]، فهذا دليل على قوة الإيمان بالله وعبادته وحده لا شريك له، فسلاح الجزائري كان التمسك بالدين الإسلامي والدفاع عن أركانه وقيمه، وتطبيق أحكامه وشعائره، وأداء فرائضه وسننه، رغم بعض العادات كزيارة الأضرحة والتبرك بها.

5.4 صورة الطعام الجزائري: كما لم يُفوِّت موباسان فرصة تذوق الطعام الجزائري فقدّم صورة إيجابية عنه تثير المتلقي الغربي لتذوقها واكتشاف طعمها، يقول: "تنتهي الوجبة دائما بالكسكس أو الكسكسي الأكلة الوطنية، يحضر العرب الكسكس بفرك الطحين بأيديهم لتشكيل حبات صغيرة تشبه رصاص الصيد، تطبخ هذه الحبيبات بشكل خاص وتُسقى بحساء استثنائي"[27].

فالرحالة هنا يصف لنا أشهر الأطعمة الجزائرية المتمثلة في طبق الكسكس، ألا وهو الطبق الرئيسي في المناسبات الذي يتصدر المائدة الجزائرية وحتى في الأيام العادية خاصة يوم الجمعة، بالإضافة إلى "الحميص" أو "الطاجين الحلو" الذي لا غنى عنه في شهر رمضان خاصة، يقول الرحالة عن هذا الطبق: "يتم تقديم الحميص، هذا الطبق المتميز...يتم تحضيره بالدجاج أو بلحم الخروف، تضاف كمية كبيرة من الفلفل الأحمر، قليل من الفلفل الحلو، التوابل العادية، ملح، بصل، تمر، والمشمش المجفف،

تطبخ كلها حتى يهرس التمر والمشمش تلقائيا، ثم يضاف هذا العصير إلى اللحم، طبق شهي بالفعل"[28].

نلاحظ وصف الرحالة للطعام الجزائري، فهذا الطبق في الغالب يقدم في الأعراس أو شهر رمضان خاصة، فهو طبق غني بالفواكه المجففة واللحم، كما راح يصف طعم الحلويات الجزائرية والتي نالت استحسانه، يقول: "تقدم أيضا حلوى بالعسل، لذيذة جدا تقدم كل مرة عندما نشرب شيئا"[29]، وهذا دليل على إكرام الضيف عند الجزائريين، وهذه الأنواع من الأطعمة عبّر عنها الرحالة بتقدير شديد بعيدا عن الصور النمطية، مبديا رأيه بصراحة، ما أضفى جمالية على النص الرحلي، فهو بذلك اللسان الناطق عن ما شاهده أو رآه.

باختصار فالاختلاف الفكري والديني، واختلاف العادات والتقاليد أدى إلى بلورة هذه الصور عن الشعب الجزائري من منظور "موباسان"، الذي أبدى رأيه بالعديد من المناطق والعادات، وقد ركزنا بدورنا على الإيجابي منها لتجاوز النظرة الاستشراقية السوداوية وتوسعنا فيها، كما وصف العادات والتقاليد في الأرياف والصحراء الجزائرية، والحياة الاجتماعية، وما يتصل بالحياة اليومية وغيرها، والكشف عن الانطباعات الإيجابية التي أخذها الرحالة عن كل ذلك، والمشاعر المتباينة التي أحس بها بعد اتصاله بالفضاء الجزائري روحا ورحلة، ف "موباسان" كان من الذين تأثروا بالشرق، والتلذذ بمتعة السفر إليه، فاتخذ من الجزائر وجهة له، مسميا إياها "بلاد الشمس".

5- خاتمة: مما سبق ومن خلال دراستنا لهذا الموضوع نستنتج:

*إن نظرة "موباسان" للجزائر تنوعت بين الإيجابية والسلبية، فركزنا على الإيجابية منها، فالجزائر بلد جميل في نظره.

*التغني بالشيخ بوعمامة، وتصوير خوف الشعب الفرنسي من مقاوماته وحروبه.

*انبهار الرحالة بالصورة الدينية للمجتمع الجزائري، وتمسكه بقواعد الدين الإسلامي، وتعظيمه لشهر رمضان المبارك.

*إعطاء صورة إيجابية عن الميزابيين وصفاتهم وسلوكاتهم.

*تعبيره عن اختلاف مذاق الطعام الجزائري وتميزه.

*كانت من بين الأمور التي لفتت نظر موباسان جمال نساء الجزائريات فعبّر عن سحرهن الفاتن.

*كما نقترح توسيع الدراسات والبحوث من قبل الباحثين والطلبة حول الدراسات الاستشراقية المتعلقة بالجزائر، وكشف الصور النمطية المشوهة والمزيفة، والإشادة بالصور الإيجابية من قبل الرحالة المستشرقين، لأنّ ذلك يساهم في تعزيز تاريخ الجزائر.

6- قائمة المصادر والمراجع:

01- خالد التوزاني، الرحلة وفتنة التعجيب بين الكتابة والتلقي، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن، 2017

02- زهير سوكاح، تمثلات الشرق في السرد الرحلي الألماني، دراسة تحليلية مقارنة، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2020

03- يحي مراد، الرد على شبهات المستشرقين، من قضايا الاستشراق بحوث ودراسات، مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان، القاهرة، دت، دط

04- جي دي موباسان، رحلة إلى الجزائر "إلى بلاد الشمس"، تر: نادية عمر صبري، ط1، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، 2007

05- رضوان ضاوي، الشرق في التمثلات الحضارية الألمانية، رباط الكتب، 24 فبراير 2020، مجلة محكمة إلكترونية، 24جويلية 2024

الهوامش والإحالات.

[1] خالد التوزاني، الرحلة وفتنة التعجيب بين الكتابة والتلقي، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن، 2017، ص 50. 51

[2] زهير سوكاح، تمثلات الشرق في السرد الرحلي الألماني، دراسة تحليلية مقارنة، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2020، ص 64

[3] يحي مراد، الرد على شبهات المستشرقين، من قضايا الاستشراق بحوث ودراسات، مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان، القاهرة، دت، دط، ص29

[4] رضوان ضاوي، رباط الكتب، الشرق في التمثلات الحضارية الألمانية، 24 فبراير 2020، مجلة محكمة إلكترونية، 24جويلية 2024

[5] زهير سوكاح، تمثلات الشرق في السرد الرحلي الألماني، ص 61

[6] رضوان ضاوي، الشرق في التمثلات الحضارية الألمانية

[7] جي دي موباسان، رحلة إلى الجزائر "إلى بلاد الشمس"، تر: نادية عمر صبري، ط1، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، 2007، ص 07

[8] الرحلة، ص 99- 100

[9] الرحلة، ص 100

[10] الرحلة، ص 98

[11] الرحلة، ص 08

[12] الرحلة، ص 45

[13] الرحلة، ص 15

[14] الرحلة، ص 98- 99

[15] الرحلة، ص 27- 28

[16] الرحلة، ص 28- 29

[17] الرحلة، ص 23- 24

[18] الرحلة، ص 94- 99

[19] الرحلة، ص 31

[20] الرحلة، ص 31

[21] الرحلة، ص 101

[22] الرحلة، ص 31

[23] الرحلة، ص 32- 33

[24] الرحلة، ص 101

[25] الرحلة، ص 103

[26] الرحلة، ص 107

[27] الرحلة، ص 69

[28] الرحلة، ص 69

[29] الرحلة، ص 69